الفصل الخامس

عالم للربح ـ من أجل ماذا؟

يقال إن مارغريت تاتشر نحتت، عندما بدأ يبزغ فجر عصر العولمة، شعاراً كثيراً مما يستعاد مفاده «لا يوجد بديل» لرأسمالية الليبرالية الجديدة. وقد جاء في تعليق نشرته مجلة «نيوزويك» على معركة سياتل «أحد أهم دروس سياتل هو انه توجد الآن رؤيتان معروضتان للعولمة، إحداهما بقيادة التجارة، والثانية بقيادة النشاط الاجتماعي»[1].

وكما كتبنا في الفصل الثاني، فإن «وجهات النظر العالمية المشتركة، أو النماذج، أو الرؤى، أو الأطر، أو الإيديولوجيات المشتركة» هي وسيلة للربط بين الجماعات ذات التقاليد والتجارب المختلفة. وهي توفر

---

(1) مايكل إليوت «الراديكاليون الجدد»، «مجلة نيوزويك 13 كانون الأول/ ديسمبر 1999»، ص 36.

أيضاً مرشداً للجهود الرامية إلى تحويل العالم، وتعريف القيم والأعراف المشتركة، وهي توفر الأساس لبرنامج مشترك.

وفي حين أن نقد العولمة من فوق قد تطور، فإن ظهور رؤية بديلة لا يزال في مراحله المبكرة. وحركة العولمة من تحت ليس لها حكماء كبار مخوّلون بإعلان رؤية لها. وبناء تلك الرؤية هو عملية اجتماعية مستمرة يستطيع أن يسهم فيها جميع المشاركين في الحركة. في نهاية الأمر، يتحتم على المشاركين أن يقرروا بأنفسهم ما هي صيغة تلك الرؤية التي يعتبرونها صحيحة. ونحن في هذا الفصل من الكتاب نستعرض انبثاق تلك الرؤية ونقترح طرق وضعها في الشكل الملموس لبرنامج مشترك.

ما ليس من مقومات الرؤية

عند تعريف الرؤية البديلة من المهم أولاً أن نفهم ما هو ليس من مقوماتها:

• إنها ليست رؤية مفردة، بل هي عملية معقدة تتلاقى فيها عناصر كثيرة، أحياناً لتشكل وحدة جديدة، وأحياناً

أخرى لكي تتزاحم وتتدافع مع غيرها في الاتجاه ذاته. والأهم من أي صياغة للرؤية يمكن التعبير عنها في بيان، هي حقيقة أن آلاف الناس في العالم يعملون في بناء هذه الرؤية.

• وهي ليست عقيدة شاملة، في الواقع هي ديانة عالمية جديدة، بمعتقدات مشتركة حول المعاني الإنسانية النهائية. فالرؤية هي مشتركة بين أناس يتبعون عملياً لكل ديانة في العالم وأناس لا ديانة لهم البتة.

• هي ليست حالة طوباوية مشتركة. إن صور المجتمع الجيد تراوح بين تحقيق الجوانب الإيجابية للحداثة في نظام عالمي ديموقراطي، ومتطور علمياً وتكنولوجياً، وسليم بيئياً، وعادل اجتماعياً من جهة، والعودة إلى أنماط حياة الشعوب البدائية من جهة أخرى، مع أنماط أخرى كثيرة بينهما.

• انها ليست إيديولوجية سياسية تقليدية من نوع الليبرالية الجديدة أو الماركسية باستنتاجات مستمدة من مبادئ أولى متفق عليها.

• وهي ليست مجموعة قيم وأعراف خاصة بالحركة. فقيم العولمة من تحت وأهدافها هي القيم والأهداف ذاتها

التي حازت إجماعاً عالمياً وفق ما هو مبيّن في عدد لا يحصى من وثائق الأمم المتحدة، بدءاً من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وحتى أحدث تقييمات السياسة البيئية والاجتماعية. والعولمة من تحت هي حركة لتنفيذ هذه الأعراف الدولية المشتركة على نطاق عالمي[2].

• ثم انها ليست المعادل لبرنامج الليبرالية الجديدة الخاص بالعولمة من فوق. وفي حين أن الليبرالية الجديدة تفرض جواباً واحداً ـ السوق ـ على كل سؤال، فالتنوع هو جوهر البديل. وبرنامج العولمة من تحت هو بنسبة كبيرة وسيلة تتيح للناس أن يطوروا بطريقة ديموقراطية مقارباتهم المتنوعة والتجريبية على المستوى المحلي، والمستوى الإقليمي، والمستوى الوطني.

ولا يمكن اختزال الرؤية بمجموعة إصلاحات لتثبيت المؤسسات الاقتصادية العالمية، مع أن هذه الإصلاحات هي جزء ضروري من برنامجها. وهي تختلف عن المقترحات المتنوعة للتيار السائد من أجل «هندسة معمارية

(2) شمولية هذه الأعراف مصدرها أنه عندما يواجه أشخاص مثل رؤساء صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية تحديات، فإنهم يحاولون أن يقدموا مبررات مؤسساتهم بالحديث عن تحسين البيئة، ومحاربة الفقر، ونشر الديموقراطية، وما شابه ذلك، الرذيلة كثيراً ما تدفع إلى الفضيلة.

جديدة» للاقتصاد العالمي من ناحيتين على الأقل. فهي تفترض مسبقاً أن مشاكل العولمة لا يمكن تصويبها إلا عبر تحويل عميق للثروة والسلطة. وهي تؤكد أن التغييرات الضرورية لا يمكن القيام بها من قبل متعهدي تموين العولمة من فوق، بل من قبل العمل الموحد الذي يقوم به الذين يتحدَّون سلطة هؤلاء المتعهدين.

نهج الرؤية

رؤية الحركة هي انعكاس لتنوع أوضاع وبرامج سير المشاركين فيها. ان أصول الكثير من عناصرها موجودة في الحركات المميزة التي انطلقت منها العولمة من تحت، ولكن هذه العناصر تم استيعابها خلال مسيرة الحركة. على سبيل المثال، إن التشديد على الحاجة إلى حماية البيئة ليس مقتصراً الآن على الذين يصفون أنفسهم مدافعين عن البيئة، بل يتعداهم إلى الناشطين في النقابات والمدافعين عن حقوق الإنسان. ومساندة تنظيم العمال بغية مقاومة السباق إلى الحضيض لا تقتصر على الحركة العمالية. والرغبة في إيجاد ثقافة تضع مزيداً من التشديد على التغذية وتشديداً أقل على السيطرة طالت أبعد من الذين يوصفون بالدرجة الأولى مدافعين عن مساواة المرأة بالرجل. والاهتمام بفقر العالم الثالث يشمل كثيرين ممن لا علاقة مباشرة لهم بمسائل التنمية الاقتصادية.

تظل العولمة من تحت متجذرة في سلسلة واسعة من حركات توعية تتعلق باهتمامات محددة. ولكن رؤيتها التوحيدية تعيد تأطير هذه الأنشطة بطرق تبين صلتها بالمشاكل الأوسع للعولمة التي يتعرض لها الآخرون. وهي تفسر حركات معينة أنها ردود على وضع مشترك وأنها جزء من كفاح مشترك.

على سبيل المثال، إن حملات تنظيم النقابات والحملات الرامية إلى حد أدنى من الأجور الكافية للعيش على مستوى محلي يمكن إعادة تعريفها أنها جزء من المقاومة العالمية للسباق نحو الحضيض. هذه المعايير للحد الأدنى يمكن تحقيقها في المجتمع المدني، عن طريق التنظيم وحملات الضغط، وعن طريق القوننة الحكومية. ويمكن أن تشمل هذه الجهود الدفاع عن حقوق الإنسان الأساسية، ولاسيما حقوق التنظيم، والمساومة المشتركة، والإضراب، والمشاركة على قدم المساواة في العملية السياسية. وعندما يتعلق التنظيم بكفاح الجماعات التي تواجه التمييز ضدها، كالنساء والأقليات العرقية، فإنه إنما يعالج جانباً أساسياً آخر من جوانب حقوق الإنسان والمساواة.

إن عملية إبداع رؤية مشتركة للحركة يجب أن تشمل - بل هي تشمل - الحوار المستمر العابر لحدود البلدان

والاهتمامات. وقد تضمّن ذلك الحوار بناء البدائل عابرة الدول، وهي بدائل لمنطقة التجارة الحرة في أمريكا الشمالية، ومنطقة التجارة الحرة للأمريكتين، واتفاقية الاستثمار متعددة الأطراف، كما تضمّن سلسلة واسعة من الحركات التي عالجت مشاكل عدم المساواة، والفقر، والبيئة، وحقوق الإنسان على كل مستوى من المحلي إلى العالمي. ويجب أن تستمر المقاربات المبرمجة في التطور في ضوء التجربة وبحسب نشوء حاجات واهتمامات جديدة.

إن جذور عملية الرؤية هذه تتجاوز الحركة ذاتها. وبعض هذه الجذور يكمن في تبادل دولي للآراء حول حقوق الإنسان يرجع على أقل تقدير إلى حركة إلغاء الرق. ولكنه يتجاوز المفهوم الضيّق الذي يختصر حقوق الإنسان ببضعة عناصر سياسية ثابتة. وهو يشمل ـ بروح الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ـ سلسلة كاملة ليس فقط من الحقوق السياسية، بل أيضاً من الحقوق الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. ومن ضمن هذه الحقوق حماية البيئة كشرط مسبق لحقوق الإنسان بل ولوجود الإنسان. ومن ضمنها أيضاً حقوق الفئات الاجتماعية وكذلك حقوق الأفراد[3]. وعملية الرؤية تنظر إلى حقوق الإنسان على أنها

(3) للاطلاع على بحث حول حقوق التجمعات السكانية من حيث العلاقة =

حقوق تتطور بنشوء فئات واهتمامات جديدة، على غرار ما حدث على نحو لافت للنظر مع حقوق النساء، والشاذين جنسياً من الذكور والسحاقيات، والشعوب البدائية[4].

وتستند العولمة من تحت بشدة إلى الإعلانات المتفق عليها في مؤتمرات الأمم المتحدة وحول هذه المؤتمرات بشأن البيئة، والتنمية، والنساء، وحقوق الإنسان، والأبعاد الاجتماعية للتنمية، وما شابه ذلك. وقد قطعت هذه شوطاً طويلاً نحو إيجاد توافق عالمي واسع على ما يحتاج إليه العالم، وهو توافق مناقض لواقع العولمة من فوق.

ويتم التعبير عن رؤية الحركة بأشكال كثيرة. وتشمل هذه الطرق مطالب الأعمال والحملات وأسبابها الموجبة، والبرامج التي تعرضها منظمات معينة، ومقترحات الباحثين ومراكز الفكر. والأمر الذي له أهمية خاصة يتمثل في البيانات المشتركة التي صدرت عن ائتلافات كان على أعضائها أن يأخذوا في الاعتبار مقاربات بعضهم بعضاً. ان

= مع الحركات الاجتماعية، راجع كلام ستوتون لليند عن «حقوق التجمعات السكانية» في كتاب «العيش داخل أملنا» الصفحات 89 فما بعد.

(4) للاطلاع على الخلفية والمنظور بشأن المدى الكامل لهموم حقوق الإنسان وعلاقتها بالعولمة، راجع مواد مركز التثقيف بحقوق الإنسان على الإنترنت.

مقترحات البرنامج في الفصل التالي تستند بدرجة أولى إلى هذه البيانات المشتركة.

من الرؤية إلى البرنامج

يتحدث علماء الاجتماع عن «الوظيفة التعبيرية» للحركات الاجتماعية. وبموجب مصطلحات هؤلاء العلماء، هذا يعني أن تسمح الحركات الاجتماعية للناس أن يعبروا عن أنفسهم. وعندما لا تفعل الحركات أكثر من السماح بأن يعبروا عن مشاعرهم، فإنها قد تعمل فعلاً عمل صمام أمان للوضع القائم، وبذلك تقلّص الضغط على النظام.

يتطلب التعبير الاجتماعي شيئاً أكثر من مجرد إعداد قائمة تمنيات تعبّر عن القيم التي يؤمن بها المرء: أي، على سبيل المثال، تمني ألا يكون أحد من الناس فقيراً. أو أن يمتنع الجميع عن تلويث البيئة. ويتطلب التغيير الاجتماعي ما هو أكثر من خوض المعارك وحتى الانتصار فيها. إنه يتطلب تغيير العلاقات.

إن وجود برنامج ما يبين صراحة التبدلات التي تسعى الحركة لتحقيقها، يسمح للحركة بأن تمضي إلى أبعد من التعبير لصياغة رؤيتها كمجموعة من التغييرات الملموسة التي ستحقق أهدافها. كما أن وجود هذا البرنامج إنما يكون الحالة الوسيطة بين الأماني والواقع، ويحوّل التمنيات إلى خطط.

والحركة التي نشأت رداً على العولمة من فوق إنما تميل إلى صياغة أهدافها بصيغ سلبية: سدّ الطريق على منطقة التجارة الحرة في أمريكا الشمالية، وإلغاء اتفاقية الاستثمار المتعددة الأطراف، وإنهاء دعم البنك الدولي للسدود الكبيرة، ومنع عقد جولة جديدة لمنظمة التجارة العالمية. ان فكرة إعداد برنامج إيجابي بحد ذاتها تواجه مقاومة في بعض الأحيان. والاهتمام بمثل هذا العمل يمكن أن يقطع الطريق على الوظيفة التعبيرية، الأمر الذي يتطلب وقفة للتأمل .

أما في الائتلافات الواسعة فمن الأسهل التوصل إلى اتفاق على الأمور التي يعارضها المرء، أكثر من التوصل إلى اتفاق على الأمور التي يؤيدها. بعض الناس يخشى أن يضفي الإعلان عن برنامج مزيداً من الشرعية على خطط الذين لا أمنية لهم سوى إصلاح العولمة من فوق لكي تعمل بمزيد من الفاعلية. إن صياغة برنامج تتطلب أن تؤخذ في الحسبان حاجات الآخرين والتناقضات المحتملة بين أهداف المرء الخاصة. وهي تشمل نوعاً معيناً من الانسلاخ عن الوضع المباشر من أجل تصور الاحتمالات التي لا تستطيع الحركة حالياً تحقيقها. كما انها تستدعي وجود درجة من المعرفة التكنولوجية وبعض العمل الشاق.

الأماني الفعلية للحركة تتجاوز بعيداً «قول كلمة لا

فقط» للعولمة. انها في الواقع معنية بأن تعكس الآثار السلبية للعولمة على الفقر، والبيئة، وحقوق الإنسان، والديموقراطية. وللقيام بذلك، لا يكفي مجرد وقف العولمة أو سد الطريق على بعض مؤسساتها. إن الهدف الضمني للحركة هو حل المشاكل التي تخلقها أو تفاقمها العولمة. وبيان أهدافها الإيجابية هو جانب مركزي من جوانب الانتقال من المقاومة إلى التغيير.

ولا يمكن للحركة، بطبيعة الحال، أن تكون مختزلة ببرنامج. ان أي برنامج لا يمكن أن يكون بديلاً للكفاح الجدي. وأفضل برنامج في العالم لا يعني سوى القليل إذا كان مجرد «خطط لا تقود إلى أي مكان وموجهة إلى لا أحد»، وإذا كان على غير صلة بالناس المصممين على تنفيذه. التردد ليس بديلاً من روح الحركة، «لأن التمسك بالحرفية يقتل، وأما الروح فتعطي الحياة». وأي برنامج يجب أن يكون أكثر من قائمة بالمقترحات التي تقدمها مختلف المناطق الانتخابية. بالأحرى، يجب أن يكون مجموعة تبديلات موحدة في الإطار الاجتماعي وملبية للحاجات المشتركة والحاجات المميزة للذين يعنيهم الأمر ويتأثرون به. وهو بذلك ينشئ مصلحة مشتركة تجمع بين المصالح المحددة لجماعات مختلفة. وهذا يسمح للحاجات غير القابلة حالياً للانسجام ـ مثلاً، الانسجام بين فرص

العمل والبيئة ـ أن تصبح قابلة للانسجام[5].

وأي برنامج إنما يحتاج إلى أن يعالج ما يمكن إنجازه حالياً وكيفية استعمال الحركة للقوة الأكبر التي تأمل أن تمتلكها مستقبلاً. وهو يشمل ما يستطيع الناس تحقيقه في الوقت الراهن بعملهم في المجتمع المدني[6]. ويشمل أيضاً

(5) هذه المقاربة تستند إلى مفهوم غرامسي لـ«الكثافة التاريخية التي تؤسس» تناظراً بين أماني وهويات مجموعات مختلفة في مشروع عالمي يتجاوزها جميعاً». بيري أندرسون «مشاكل الاستراتيجية الاشتراكية» في كتاب بيري أندرسون وروبرت بلاكبيرن «نحو الاشتراكية» (إيتاكا، مطبعة جامعة كورنل، 1965) ص 243.

(6) كثيراً ما ينسى الناس، إلى جانب الحملات الكبيرة والعصيان المدني، أن غاندي نهج ما سماه نهج «البرنامج البنّاء». كان ذلك سلسلة من الجهود التعاونية في ما نسميه الآن المجتمع المدني. وإقراراً منه بأن الحكم البريطاني وضع حدوداً لما يمكن أن تنجزه هذه الجهود، إلا أنه مع ذلك أكد أن الشعب يجب أن يفعل ما يستطيع فعله لتعزيز تعلم القراءة والكتابة، والحفاظ على الأوضاع الصحية، والمساواة، والأهداف الاجتماعية الأخرى بدون انتظار التخلص من السلطة الاستعمارية. كان غاندي يرى تكاملاً بين البرنامج البناء والعصيان المدني. «كان غاندي يقول إنه في أي برنامج يهدف إلى بناء مجتمع جديد، يمكن أن نتوقع نشوء المعارضة على مراحل مختلفة ولأجزاء محددة من البرنامج، ومن الضروري القيام بعمل مباشر لإزالة العقبة من أجل تمكين العمل البناء من الانطلاق». راجع كتاب جين شارپ «غاندي مخطط استراتيجي سياسي: مع مقالات عن الأخلاق والسياسة». (بوسطن، بورتر سارجينت 1979)، الفصل الخامس «نظرية البرنامج البناء لغاندي) ص 84.

إن المنشق البولندي آدم ميتشنيك، الذي استند إلى التقاليد البولندية القديمة، قد أكد هو كذلك ما أسماه «العمل البناء» باعتباره أحد =

ما يستطيعون حالياً فرضه على المؤسسات القائمة عبر كفاحهم. كما انه يشمل التغييرات التي سيجرونها إذا ما تغير ميزان القوى لمصلحتهم. وأي برنامج إنما يحدد الأعراف التي تهدف الحركة إلى فرضها على الشركات الكبرى، والأسواق، والدول، والمؤسسات الدولية، وغيرها من مراكز القوة. عندئذ يمكن إخضاعها للمساءلة وفق هذه الأعراف، بداية عبر حملات لتغيير ممارسات معينة، ونهاية عبر أنظمة قابلة للتنفيذ.

ويحتاج أي برنامج إلى أداء أربع مهمات أساسية ذات

= أوجه التغيير الاجتماعي الذي يمكن متابعته حتى في ظروف القمع. راجع آدم ميتشنيك في كتاب «رسائل من السجن ومقالات أخرى» (بيركلي، مطبعة جامعة كاليفورنيا 1987) الصفحات 302 ـ 3 و316. ان الحركات الإسلامية الحديثة مثل حماس تستمد الكثير من قوتها والدعم الذي يأتيها من سلسلة واسعة من المؤسسات الخيرية الاجتماعية التي نشأت لتلبية حاجات لم توفرها بصورة كاملة المؤسسات القائمة. والحركة النسائية في الولايات المتحدة لها تقليد راسخ في بناء «مؤسسات بديلة» مثل العيادات الصحية النسائية، وملاجئ للنساء اللواتي تساء معاملتهن، ومراكز الرعاية اليومية.

إن جهوداً من هذا القبيل هي علاقة وثيقة بجهود المجابهة وجهود إصلاح المؤسسات المركزية، وهي تستطيع أن تعمل بالتناظر معها. فهي تنظم الناس وتحشدهم لعمل ما يمكن عمله ضمن علاقات القوة الموجودة، وتوفر المهارات والمعرفة الضرورية لكي يجد الناس الحلول لمشاكلهم، وهي، في الوقت ذاته، تعلم الناس ما هي تأثيرات علاقات القوة الموجودة وما يجب تغييره لتحقيق المزيد من الإنجاز.

علاقة بعناصر متباينة ضمن الحركة، وضمن النطاق الأوسع للرأي العام، والمعارضة، والعالم الذي ينبغي تغييره. أولاً، يجب أن يوحد اهتمامات ومقاربات الأجزاء المختلفة للحركة. ثانياً، يحتاج إلى المساعدة في شرذمة أجزاء من المعارضة، وتحييدها ونزع شرعيتها بل والتغلب عليها. أخيراً، يجب أن يقترح حلولاً جيدة لمشاكل العالم الحقيقي.

في الفصل الآتي سنقترح مسودة برنامج من هذا القبيل.

obeikandl.com